بين بواعث الأمل

...

وعوامل اليأس

obeikandl.com

obeikandl.com

العودة إلى الإسلام بين اليائسين و الآملين

قال صاحبي: أنا لا أنكر أن الدعوة إلى الإسلام الصحيح والعودة إلى أحكامه وآدابه والتشبث بعقيدته وشريعته، دعوة إلى شيء جميل ورائع حقاً، ولكنه جميل ورائع في عالم المثال والخيال والتحليق الشعري فقط، أما في عالم الحقيقة والواقع، **فهي دعوة بلا أمل، دعوة إلى نظام لا مستقبل له**، نظام ميؤوس من تطبيقه.. فلماذا نجهد أنفسنا فيما لا طائل تحته؟ لماذا نبذر ونزرع ونسقي ونتعب بلا أمل في ثمرة، أو رجاء في حصاد؟!! **أليس أولى بنا ـ إن كنا عمليين ـ أن نواجه الواقع، ونتبنى مذهباً من المذاهب الحديثة، ونستورد نظاماً من الأنظمة السائدة (الجاهزة) فنبني عليه حياتنا ونسير في ركب الحياة المتطور، فنستريح ونريح؟؟**

قلت: رويدك يا صاحبي، أما إن كنا ننشد الراحة القريبة السطحية، فأقرب طريق لها هو التسول وسؤال الغير، الذي لامبعث عليه إلا ضعف الهمة وانحطاط النفس .. ولا ينتج إلا سخط الله والناس، فماذا يحدث ـ يا ترى ـ إن نحن نفذنا ما تقترحه من تسول مبدأ أو منهج من غيرنا؟

إننا إن فعلناه أسخطنا ربنا، وخسرنا ديننا، وتنكرنا لتاريخنا، وفقدنا أصالتنا وشخصيتنا، وأصبحنا أذناباً لغيرنا، نتبع ولا نتبع، ونقاد ولا نقود، ومع هذا كله لن تستطيع هذه المبادئ المستوردة (الجاهزة) أن تحل مشكلاتنا، وتحقق التوازن الذي ننشده لمجتمعنا، والسعادة التي نرجوها لأمتنا؛ ذلك لأنها لم تسعد أهلها أنفسهم، فكيف تسعد غيرهم؟ وفاقد الشيء لا يعطيه؟

ولو سلمنا أنها أسعدتهم في حياتهم، لعجزت عن ذلك عندنا؛ فإنها ثوب خيط لغير جسمنا، وداوء (ركب) لغير أدوائنا، قلما نستفيد منه إلا مسكنات وقتية خادعة، تعقبها آلام مضنية، وعلل وبيلة، فكيف نلتمس فيها الشفاء، وعندنا الدواء المجرب، والشفاء المحقق، بل عندنا إكسير الحياة وروحها، عندنا الإسلام ؟؟!!

قال صاحبي: أنا لم أنكر ما في الإسلام من حق وخير وجمال، ولكن أراه في عصرنا أمراً ميؤوساً منه ـ كما قلت لك ـ أراه دعوة من غير أمل، وأنا أصارحك أننا معشر الشباب في حاجة إلى دعوة تملأ قلوبنا بالأمل، الأمل في النصر وفي المستقبل القريب، فإن الأمل حياة، واليأس موت، ونحن بوصفنا بشراً وشباباً نجفل من الموت ونحب الحياة!

قلت لصاحبي: وما الذي جعل الإسلام لا مستقبل له، وجعل العودة إليه أمراً ميؤوساً منه؟ إن القطع في أمر خطير كهذا بهذه السرعة، وهذه السهولة، غفلة شديدة من أبناء الإسلام، وتهور في الحكم لا يرضاه منطق ولا علم، ولا يسنده الواقع ولا التاريخ.

قال صاحبي: بل المنطق والعلم والواقع والتاريخ كلها تسندني فيما أقول، ومعي الأدلة والبراهين.

قلت: هات ما عندك.

قال: إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أمامنا معوقات عدة في طريق العودة إلى الإسلام بعضها فكري، وبعضها عملي، بعضها محلي، وبعضها خارجي، وها أنا أسردها عليك واحداً بعد الآخر.

المعوق الأول: إننا في عصر تحرر فيه العالم كله من الدين، عالم أسلم قياده للعلم المادي التجريبي، وعزل الدين عن الدولة وعن الحياة، فسعد وارتقى، وحقق المعجزات، أو ما يشبه المعجزات، فهل نقف نحن وحدنا في العالم، ندعو إلى الدين ونتمسك به لنتلقى قذائف الاتهام بالرجعية والجمود من كل مكان؟ أم هل نستطيع أن نقنع الإنسان المعاصر الذي حطم الذرة، وغزا الفضاء، أن يتنازل عن مكاسبه وانتصاراته التي حققها تحت راية العلم، ليدع توجيه سفينته مرة أخرى إلى الدين، الدين الذي وقف من قبل في وجه العلم والعلماء؟

قلت: هل فرغت من حديثك عن هذا المعوق؟

قال: نعم.

قلت: هل تسمح لي أن أرد على كل معوق أولاً بأول؛ لنكون على ذكر منه؟

قال: لا بأس.

قلت: قبل أن أشرح وجهتي، دعني أسألك هذا السؤال: هل تريد الوصول إلى الحق؟ أم تريد الغلبة والانتصار لرأيك؟

قال: أرجو أن يكون الوصول إلى الحق نشدتنا جميعاً، وإلا فلا خير في البحث.

قلت: فأعطني سمعك وعقلك.

قال: ها أنا معك بسمعي وعقلي وقلبي.

قلت: ليس صحيحاً ما قلت: إن العالم تحرر نهائياً من الدين، ورضي بالحضارة المادية، كيف وأصل الدين فطرة أصيلة في النفس البشرية؟ وحاجة الروح الإنساني إلى الدين كحاجة الجسم الإنساني إلى الطعام والشراب والتنفس؟

إن الحضارة المادية لم تشبع كل حاجات النفس الإنسانية، ولم ترض أشواقها وتطلعاتها، ولم تفسر لها كنه حياتها وسر وجودها، ولم ترو ظمأها

إلى الخلود، فهذه كلها ليست وظيفة الحضارة المادية، ولا الفلسفة المادية، وإنما هي وظيفة الدين.

فالواقع أن الناس كل يوم يزدادون شعوراً بالحاجة إلى الدين، ويزدادون نقمة على مادية الحضارة وآليتها وتطرفها، ويشكون الفراغ والسأم والتفاهة وفقدان الهدف في حياتهم الصاخبة اللاهثة!

إن العلم قد أعطاهم وسائل الحياة، ولكنه لم يعطهم غاياتها، إنه زين لهم ظاهرها، ولكنه لم يصلهم بأعماقها وأسرارها، لقد وفر لهم المتعة، ولكنه لم يحقق لهم السكينة التي هي سر السعادة، إن أبلغ تعبير عن ذلك، ما قاله أحد مفكري الهنود لأحد مفكري الغرب: لقد أحسنتم أن تحلقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في الماء كالسمك، ولكنكم بعد لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كإنسان!!

وكذلك قال طاغور وإقبال في شعرهما من هذا المعنى شيئاً كثيراً.

قال صاحبي: قد يقال: هؤلاء مفكرون شرقيون لا تقبل شهادتهم على حضارة غربية، ربما لا توافق ذوقهم الشرقي وروحهم المتصوفة.

قلت: إليك شهادة شهود من أهلها، اقرأ شهادة ذلك الغربي النمساوي (ليوبولد فايس) الذي أسلم وتسمى باسم (**محمد أسد**) في كتابه: (**الإسلام على مفترق الطرق**)، واقرأ شهادة الفيلسوف الفرنسي (**رينيه جينو**) الذي أسلم، وتسمى باسم (**عبد الواحد يحيى**) في كتابه: (**أزمة العالم الحديث**) وحاجته إلى رسالة الإسلام.

قال صاحبي: وهذه الشهادة وإن كانت من غربيين ـ قد ينقص من قيمتها أن صاحبيها أصبحا في زمرة المسلمين.

قلت: إنما دخلا في الإسلام بعد أن نفضا أيديهما من الحضارة الغربية المفلسة، ومع هذا إليك شهادة كثيرين غيرهما من الأوربيين والأمريكيين الذين لم يفارقوا دينهم إلى الإسلام، وحسبك أن ترجع إلى ما كتبه الدكتور **(إلكسس كاريل)** في كتابه: **(الإنسان ذلك المجهول)**، والدكتور **(هنري لنك)** في كتابه: **(العودة إلى الإيمان)**، و **(كولن ولسون)** في كتابه: **(سقوط الحضارة)**، و **(لقبنجسون)** في كتابه: **(التربية لعالم حائر)**، و **(توينبي)** في كتابه: **(بحث في التاريخ)** وتقرأ ما تنشره الصحف بين الحين والحين عن مفاسد الحضارة الغربية لترى أن هذه الحضارة غاربة ومولية الأدبار، وأن سر إدبارها وإفلاسها هو خلوها من روح الدين الحق وإهدارها لأهم خصائص الإنسان.

فإذا كان الغرب قد حبس الدين بالأمس بين جدران الكنيسة، ولم يسمح له بالحركة إلا بضع ساعات كل يوم أحد، مع أنها حركة مظهرية رسمية صورية، فقد بدأ يحس الإنسان هناك بحاجته الماسة إلى الدين، بيد أنه يريد ديناً يمنحه سكينة النفس واستقامة الحياة، ولا يحرمه مكاسب العلم، ومكتشفات الحضارة، وجبروت الآلة، ديناً لا يسجن عقله، ولا يكبت مشاعره، ولا يصدم فطرته، ولا يحرم عليه طيبات الحياة !! وعداء الغرب للدين، إنما كان في الحقيقة عداء لدين الكنيسة لا لدين الله.

على أن الغرب إن عزل الدين عن الدولة ـ كما قيل ـ إنما عزل الكنيسة ورجال الكهنوت عن الحكم حين وقفوا مع الملوك ضد الشعوب، ومع الخرافة ضد العلم، فثارت عليهم الجماهير صارخة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس، ومع هذا ظلت أصابع الكنيسة تعمل في كثير من القضايا السياسية من وراء ستار، وظلت دول وهيئات سياسية تغذي التبشير

الاستعماري، كما تسند الكنيسة ومؤسساتها الاستعمار التبشيري، ولا زال في كثير من أقطار أوروبا أحزاب سياسية تدعى (الأحزاب المسيحية) كما في ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وغيرها، وبعضها تولى الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين في بريطانيا يقرر أن هدفه (إقامة حضارة مسيحية).

فما للمسلمين وحدهم يخافون أن تلحقهم تهمة الحرص على الدين أو العودة إلى الدين؟ ! هذا مع أن ديننا هنا غير دينهم هناك، وتاريخ علماء الدين عندنا غير تاريخ رجال الكنيسة عندهم، وموقف ديننا من العلم غير موقفهم، لم يقم في ديارنا صراع بين الدين والعلم، ولم تنشأ عندنا محاكم تفتيش تقضي بإحراق العلماء، وتمزيق أجسادهم بالخوازيق والمسامير ومحاكمة جثثهم بعد موتهم، فنحن حين ندعو الإنسان إلى ديننا لا ندعوه إلى أن يتنازل عن مكاسبه الحضارية، وانتصاراته العلمية، فيدع مصباح الكهرباء إلى **قنديل الزيت، ويدع الطائرة ليركب الجمل** سفينة الصحراء، ويدع معامل التجربة والملاحظة ليسير وراء الخيالات والأوهام كلا. فطلب العلم النافع عندنا فريضة، سواء كان علم دين أم علم دنيا، ومنه ما هو فرض كفاية، ومنه ما هو فرض عين، ولا يقعد المسلم عن طلب العلم ولو بالصين، ولا يضيره أخذ الحكمة من أي وعاء خرجت، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، كل ما يراه الإسلام هنا أن يستخدم العلم لتأييد الحق، وتثبيت الخير لا لإذاعة الباطل، وإشاعة الشر، وتقوية الفساد، وتدمير الإنسان، فنحن حين ندعو إلى الإسلام لا ندعو إلى خرافة أو عجز أو جمود، لا ندعو إلى دولة الكهنوت أو حكومة الدراويش، نحن حين ندعو إلى الإسلام إنما ندعو إلى المنهج العلمي الصحيح، والتفكير المنطقي السليم، والعمل الإنساني

الصالح، والخلق الإنساني الكريم، والتكافل الاجتماعي الفاضل، والسلام العالمي العادل، والحضارة الإنسانية المثلى، الحضارة التي تمزج بين الروح والمادة، وتوفق بين العقل والقلب، وتعدل بين الفرد والمجتمع، وتؤاخي بين الإنسان والإنسان، وقبل ذلك كله توثق الصلة بين الله والناس.

ثم إن الدين في حياتنا ليس شيئاً ثانوياً ولا أمراً على هامش وجودنا، إنه الموجه الأول لأفكارنا وعواطفنا، والمنشئ الأول لأخلاقنا وتقاليدنا، والينبوع الأول لعقائدنا وفلسفتنا في الحياة، إنه يجري منا مجرى الدم في العروق، ويسري في حياتنا مسرى العصارة في الأغصان الحية النضرة. إن الأمم كلها لو استغنت عن الدين ما استغنينا نحن عنه أبداً، لأننا به كنا وبغيره لن نكون.

وهنا التفت لصاحبي قائلاً: أحسب هذا القدر كافياً في إلقاء الضوء على معوقك الأول.

قال: أجل هذا حسبي وكفى.

قلت: فلننتقل إلى **المعوق الثاني**.

قال صاحبي: أما المعوق الثاني فأراه ماثلاً **(في ضعف المسلمين اليوم وتخلفهم في شتى الميادين)**، فإن ذلك قد ألقى على كاهل الإسلام نفسه تبعة تخلفهم وضعفهم بحق أو بغير حق، مما جعل دعاة الإسلام في وضع لا يحسدون عليه، فلو كان المبدأ الذي يدعون إليه مصدراً للخير والسعادة والقوة؛ لنضح على أهله،فكيف وهم في ذيل الأمم؟

قلت: أما ضعف المسلمين اليوم وتخلفهم فلا يقع على الإسلام منه مثقال ذرة من لوم؛ فإنما كان يلام الإسلام لو أن المسلمين اليوم مستمسكون

بدينهم متخلقون بأخلاقه، منفذون لشرائعه، حافظون لحدوده، حكاماً وشعوباً، ولكن الإجماع منعقد على أن المسلمين بعيدون عن الإسلام الحق بعداً شديداً، كما أن شهادة التاريخ أن المسلمين يوم كانوا مسلمين حقاً، سادوا الدنيا، وفتحوا الممالك، دوخوا الجبابرة، وأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وتفتحت عليهم بركات السماء والأرض.

والمتتبع للمد والجزر في تاريخ الإسلام يجد المد والانتصار والقوة منوطة بالرجوع إلى هدي الإسلام بتوجيه إمام أو تأثير زعيم، أو قائد، يجدد للأمة أمر دينها، كما يظهر ذلك واضحاً أيام عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي، وأمثالهما.

وهذا ينتهي بنا إلى أن العلاج الفذ لما عليه المسلمون من ضعف وتمزق وانحطاط هو العودة إلى الإسلام الصحيح، كما دعا إلى ذلك المجددون الأصلاء مثل: جمال الدين والكواكبي ومحمد عبده ورشيد رضا وإقبال وحسن البنا وصادق الرافعي وعباس العقاد وغيرهم من المفكرين ودعاة الإصلاح.

المعوق الثالث: القوى المعادية للإسلام:

قال صاحبي: سلمت بما تقول: ولكن أذكر لك معوقاً من أشد المعوقات وأخطرها، ولا أظنك إلا موافقي عليه.

قلت: ليت شعري ما هو معوقك هذا؟

قال إنك تؤمن معي أن القوى المعارضة للإسلام، والمعادية له، في الداخل والخارج، قوى ضخمة وهائلة، عدداً وعدة، ولا يمكن لهذه القوى أن تسمح بعودة الإسلام، كما لا يمكن لدعاته أن يصمدوا أمامها، وهم ضعفاء الحول

والطول لا سند لهم من الشرق ولا من الغرب، بل نرى الجميع يختلفون في قضايا كثيرة، فإذا كان العدو هو الإسلام اتفقوا واتحدت كلمتهم، أما المذاهب الجديدة التي دعوت إلى استيرادها في أول الحديث فلكل مبدأ منها دول تشد أزره، وكتل تحمي ظهره، بل تغذي دعاته بالفكر والثقافة، وتمدهم بالتخطيط والتمويل، والتأييد والحماية الظاهرة والخفية، أين هذه من دعاة الإسلام الذين يعاديهم الأحزاب والحكومات، وتحاربهم قوى اليسار وتضطهدهم قوى اليمين، ويتهمهم العصريون بالتزمت، كما يتهمهم المتزمتون بالترخص في فهم الدين، وتقف في سبيلهم كل المعسكرات على اختلاف ألوانها واتجاهاتها اليهودية العالمية، والشيوعية الدولية، والصليبية الاستعمارية، ومن هنا، تراهم لايخرجون من حفرة إلا ليسقطوا في مثلها أو أعمق منها، ولا يكادون ينفضون غبار محنة إلا استقبلوا أختها أو أشد منها؟؟

قلت: أما ما ذكرته فهو صحيح ١٠٠٪ ولكن هذا لا يقعدنا عن الدعوة إلى ديننا، ولا يثبطنا عن العمل له، فإن هذه القوى المحاربة للإسلام ودعوته ـــ باتفاقنا جميعاً ـ قوى شريرة ظالمة، مبطلة، لا تبغي الخير لنا، ولا السيادة لأمتنا، قوى تسيرها دوافع الحقد علينا، والطمع فينا، والتربص بنا، والخوف من انتفاضاتنا، وتكتلنا حول إسلامنا.

إنني أخالفك تماماً في اعتبار عداء هذه القوى لنا، معوقاً يثبطنا ويوئسنا، بل أعتبره حافزاً يدفعنا إلى المقاومة والمصابرة، وسوطاً يلهب ظهورنا للمضي والمثابرة، إن عداء هذه القوى الشريرة في الداخل والخارج يزيدنا حرصاً على دعوتنا، وإصراراً عليها، واستقتالاً في سبيلها، فإن هذه القوى لا تعادي إلا الحق، ولا تحارب إلا الخير، ولا تقاوم إلا النور، وهنا يحضرني قول الشاعر العربي:

لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كل امرىء غير طائل

وإني شقي باللئام، ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائل[1]

قال صاحبي: أنا معك في أن هذه القوى على باطل، وأن عداءها لدعوة الإسلام يدل على أنها دعوة الحق والخير والنور، ولكن الذي أقوله: إن هذا الحق ضعيف الشوكة، مهيض الجناح، مفلول السلاح، فكيف يرجى أن تقوم له قائمة، وهذه القوى الجهنمية تقعد له كل مرصد، وتقطع على دعاته كل مسلك، وتزرع في طريقهم الأشواك والألغام؟

قلت: إن هذا المنطق من أساسه مرفوض عند دعاة الحق وأصحاب الرسالات، إنهم لا يقيسون الناس بالطول والعرض، ولا يقدرون الأمور بالكم والحجم، ولا يزنون القوة بالعدد والعدة، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من قوم غرتهم عدتهم واستحكاماتهم العسكرية، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

إن الإنسان إذا أيقن بالحق الذي يدعو إليه، واستقر الإيمان به في أعماق قلبه، لم يبال بالقوى المعادية له والواقفة في سبيله، فإن الحق قوي بذاته، وإن كانت الدنيا كلها ضده، والنصر له في النهاية إذا أصر دعاته عليه، وصبروا وصابروا من أجله، فإن الباطل قريب الغور، قصير النفس سريع الزوال، ﴿**فأما الزبدُ فيذهبُ جفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ**﴾[الرعد: ١٧] .

ولو كان رسل الله ودعاة الإصلاح يبالون بالقوى المعادية لهم؛ ما انتصرت في التاريخ دعوة حق ولا رسالة خير، فإن أكثرية البشر للأسف تميل

---

(١) الطرماح بن حكيم شاعر إسلامي فحل من طيء، ولد ونشأ في الشام توفي نحو ١٢٥هـ.

مع الهوى،وتجنح إلى الباطل، وهذا ما قرره رب البشر بقولـه: ﴿**ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون**﴾[غافر: ٥٧]، ﴿**بلْ أكثرُهم لا يعقِلون**﴾[العنكبـوت: ٦٣]، ﴿**ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايؤمِنونَ**﴾[غافر: ٥٩]، ﴿**وإن تطعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سبيلِ اللهِ**﴾[الأنعام: ١١٦].

لقد قام محمد رسول الله يـوم قـام برسـالته يدعـو النـاس كافـة والعـرب خاصة إلى ديـن غـير دينهـم، ووجهـة غـير وجهتهـم، ونظـام غـير أنظمتهـم، وأخلاق غير أخلاقهم، فهل ثناه عن دعوتـه وقـوف الدنيـا كلهـا في وجهـه، ووجه القلة التي آمنت به واتبعته حتى رمتهم العرب عن قوس واحـدة؟ وهـل هناك مذهب ساد وانتصر إلا وسط قوى معارضة، وكتل معادية له؟ ألا تـرى كيف انتصرت الشيوعية وغيرها من المبادئ الهدامة المخربـة؟ ولم يكـن معهـا إلا القليل من الناس والقليل من الإمكانات.

فما بالنا نريد للإسلام وحده في هذا العصر أن يظهر بـين قـوى مشـجعة مؤيدة: تربت على كتفه وتصفق لدعاته،وتهتف لأنصاره: مرحى مرحى؟!!

على أننا إذا تعمقنا في تقدير وزن القوى التي لنا والتي علينا؛ كانت كفـة الإسلام بحمد الله أرجح وأثقل.

أ ـ فنحن بالإسلام نملك رصيداً ضخماً ولا يمكن أن تملكه دعـوة أخـرى وافدة من هنا وهنـاك. إن وراء الإسـلام قـوة الجماهـير الغفـيرة المؤمنـة بربهـا وقرآنها ومحمدها، المتطلعة إلى من يقودها باسـم الله ويضـع يدهـا في يـد رسـول الله،وعندئذ تبذل المال عن رضا واغتباط، والروح عن طواعية وارتيـاح. إن هـذه الأمة متدينة بفطرتها، وبتاريخها، والدين هو مفتاح شخصيتها، وصيقل مواهبهـا،

وصانع بطولاتها وسر انتصاراتها الكبرى، وهي أسرع استجابة إليه، والتفافاً به من أي دعوة دخيلة جاء بها غاصب محتل، أو بذر بذورها طامع متربص.

ب ـ ونملك كذلك قوة المنهج الذي ندعو إليه، قوة مبادئ الإسلام العظيمة الخالدة، نملك القوة التي تتمثل في وضوحه وشموله وعمقه واتزانه وتأثيره. الإسلام عقيدة تخاطب العقل، وعبادة تزكي النفس، وأخلاق تلائم الفطرة، وأحكام تحقق التوازن والعدل، وتطارد المفاسد، وتجلب المصالح، وتعطي كل ذي حق حقه.

ومن أبرز معالم القوة في هذا الإسلام: أنه ليس من وضع البشر، بل هو من تنزيل رب العالمين، وهذا العنصر الإلهي فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير، ومن العجز والقصور، الذي يصاب به دائماً كل منهج يضعه البشر لأنفسهم.

وهذه الميزة أيضاً تجعله أدنى إلى القبول والإذعان له من جمهرة الناس؛ لأنه انقياد من الإنسان لربه، خلقه فسواه، وأمده بنعمته، وغمره برحمته، والذي يرجو مثوبته ويخشى عقابه، على عكس المبادئ الوضعية التي لا يطيعها الإنسان إلا خوفاً أو طمعاً، والتي يحاول أن يتهرب من سلطانها ما استطاع.

ومن أسباب قوة الإسلام أنه منهج نابع من أعماق الأمة، وليس دخيلاً ولا طارئاً عليها بحيث تحتاج إلى ضغط مادي أو معنوي حتى تسيغه وترضى بتجرع كأسه.

جـ ـ إن هذه القوة المذخورة في مبادئ الإسلام لا يعادلها إلا القوى المكنونة في حنايا أمة الإسلام.

تلك القوى التي انفجرت يوماً والمسلمون في ضعف وتفرق وخذلان،

فحطمت الصليبيين في (**حطين**)، وهزمت التتار في (**عين جالوت**)، وأسرت لويس التاسع في (**دار ابن لقمان**) بالمنصورة.

إن الأجانب من المستشرقين والدارسين لطبيعة أمتنا، وخصائص ديننا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية، يحسبون لها ألف حساب، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها يوماً من الأيام. يقول البروفسور (**جب**) في كتابه: (**وجهة الإسلام**): (إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها. إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد).

وكتب الرحالة الألماني (**بول أشميد**) كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه: (**الإسلام قوة الغد**) ظهر سنة ١٩٣٦م ومما قال فيه: إن مقومات القوى في الشرق الإسلامي، تنحصر في عوامل ثلاثة:

١ ـ في قوة الإسلام (كدين) وفي الاعتقاد به، وفي مثله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢ ـ وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الذي يمتد من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غرباً إلى المحيط الهادي، على حدود أندونيسيا شرقاً، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتي، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقاً إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣ ـ وأخيراً أشار إلى العامل الثالث وهو: خصوبة النسل البشري لدى

المسلمين، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة[1] .

ثم قال: **(فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة، وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم؛ كان الخطر الإسلامي خطراً منذراً بفناء أوروبا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله).**

ويقترح (بول أشميد) هذا بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية، كما تبلورت في تاريخ المسلمين، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم، **أن يتضامن الغرب المسيحي شعوباً وحكومات ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في أسلوب نافذ حاسم[2]** .

وقال (روبرت بين) في مقدمة كتابه الذي سماه: (السيف المقدس): (علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم؛ لأنهم حكموا العالم سابقاً، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة التي أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ. ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف القراء على أصل العرب، وسميته باسم السيف ذي النصلين الذي ناله محمد في وقعة بدر تذكاراً لانتصاره؛ لأن السيف أصبح رمزاً لمطالبه الإمبريالية)[3] .

---

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل في العالم الإسلامي!

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهي.

(٣) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسيني عن هذا الكتاب.

وبغض النظر عما في هذا الكلام من تحامل، وما يغلي به من حقد، فهو يبين لنا مبلغ قوة المسلمين في نظر الأجانب عنهم.

واسمح لي أن أسوق لك مثلاً معاصراً على القوة الذاتية في هذا الإسلام ذلك المثل هو (تركيا). تركيا التي أراد أتاتورك وحزبه أن يعروّها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمت بصلة إليه، حتى ألغى غطاء الرأس، وحتى الكتابة، فقد جعل غطاء الرأس إجبارياً هو القبعة، وجعل حروف الكتابة هي اللاتينية، منع الكلام بالدين ولو في الاذان، وأباح للمسلمة أن تتزوج اليهودي أو النصراني، وسوى بين الذكر والأنثى في الميراث، وجعل القوانين كلها غربية لحماً ودماً وعظماً، حتى القوانين التي تسمى «الأحوال الشخصية» وطوردت الثقافة الإسلامية والعربية، وحورب أهلها بل قوتلوا وقتلوا، وظن الناس أن شمس الإسلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد، وإن ظل الإسلام قد تقلص عنهم إلى غير رجعة، ومرت على ذلك عشرات من السنين جاءت راكدة، كفيلة بأن تميت الإسلام في الصدور، وأن تدب معها عقارب اليأس إلى القلوب.

ولكننا لم نزل نقرأ ونسمع عن امتداد وقوة التدين هناك، وانكماش الإلحاد والإباحية وخفض صوتهما يوماً بعد آخر، رغم ما لديهما من إمكانيات مادية وأدبية، وما يلقى دعاتهما من مساعدات داخلية وخارجية.

ولقد أدت انتفاضة الدين في تركيا أخيراً إلى سقوط حزب الكماليين، ونجاح حزب (العدالة) الذي له نزعة إسلامية واضحة.

وآية الآيات في هذا الدين وأثره في أمته، أنه أشد ما يكون قوة، وأصلب

ما يكون عوداً، وأعظم ما يكون رسوخاً وشموخاً، حين تنزل بساحته الأزمات، وتحدق به الأخطار، ويشتد على أهله الكرب، وتضيق بهم المسالك، ويقل المساعد والنصير.

حينئذ، يحقق هذا الإسلام معجزته، فتنبعث الحياة من الجثمان الهامد، ويتدفق دم القوة في عروق الأمة، وينطلق جنود الحق انطلاقة المارد من القمقم، فإذا النائم يصحو، والسكران يفيق، والجبان يتشجع، والضعيف يقوى، والشتيت يتجمع، وإذا هذه القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك وهنالك، تكون سيلاً عارماً، لا يقف دونه حاجز ولا سد من السدود .. برز ذلك كله في يوم الردة منذ فجر الإسلام، بعد موت النبي ﷺ وظهور المتنبئين الكذابين، من أمثال: مسيلمة وسجاح والأسود وطليحة، واتباع قبائلهم لهم عصبية لا اقتناعاً، حتى قال قائلهم: (وا لله لكذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر).

ومع ارتداد هؤلاء ظهر صنف آخر من العرب، يقر بنبوة محمد، وبالصلاة، ولكنه لا يعترف بالزكاة فريضة وعبادة، تؤدى لأحد بعد رسول الله، فما كان من أبي بكر ــ الرجل البكاء الرقيق الخاشع ــ إلا أن وقف كالطود، وأبى إلا أن يحارب الجميع، حتى يعودوا إلى دين الله الحق، في الوقت الذي كان أكثر الصحابة يقولون له: (يا خليفة رسول الله، الزم بيتك، واعبد ربك، حتى يأتيك اليقين، لا طاقة لنا بحرب العرب جميعهم) ومن هؤلاء عمر الفاروق، الذي زأر الصديق في وجهه زأرة الأسد الهصور: (أجبار في الجاهلية، خوار في الإسلام يا عمر؟!). (أأرجو نصرتك فتجيئني بخذلانك؟!). (وا لله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول لقاتلتهم عليه، ما

استمسك السيف بيدك).

وكان ما قال الصديق، وانطلقت كتائب الله تؤدب المتمردين، وترد الشاردين، وتأخذ حق الفقير بحد السيف من الممتنعين، وانهزمت الردة، وأنبياؤها الكذبة، وانتصر النور على الظلام، وعاد المتمردون إلى حظيرة الإسلام، أكثر إيماناً، وأشد حماساً، يريدون أن يكفروا عن سوء فعلتهم، فانضموا إلى الجنود الفاتحين، يحاربون أعتى إمبراطوريتين في الأرض: فارس والروم، وإذا هم في معارك الفتح أول المحاربين إقداماً، وأسرعهم للفداء،وتلبية للنداء.

وقل مثل ذلك، حين غزا التتار ديار الإسلام، فدخلوها بجموعهم الغفيرة، وأساليبهم الوحشية، كما تدخل الريح العقيم، ﴿**ما تذرُ من شيءٍ أتتْ عليه إلا جعلتهُ كالرميمِ**﴾[الذاريات: ٤٢]، فدمروا المدن، وخربوا العمران، وأسالوا الدماء أنهاراً، وأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، وألقوا أسفار المكتبات في نهر دجلة حتى اسود ماؤه من كثرة ما سال من مداد الكتب التي ألفها علماء المسلمين، وأصبحت حضارة الإسلام بل حضارة البشر جميعاً، مهددة بهذا الغزو الوحشي الذي لايبقي ولا يذر، والذي يذكرنا بما جاء في وصف يأجوج ومأجوج - ولعلهم صنف منهم ـــ وظن الناس أن راية الإسلام قد نكست ولن ترتفع بعد اليوم، وأن أمة الفتح والنصر قد حُقت عليها الهزيمة، فهيهات أن تعود إلى الميدان من جديد.

ولم تكن تمض سنوات، حتى تحققت معجزة الإسلام، فإذا هؤلاء الجبابرة الذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام، وإذا سيف الغازي المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلامية العزلاء، وإذا الغالبون يدخلون أخيراً في دين

المغلوبين!! على خلاف ما هو معروف ومألوف، وهو ما قرره ابن خلدون أن المغلوب هو المولع دائماً بتقليد الغالب المنصور.

د ـ ونحن نملك ـ قبل ذلك كله ـ الإيمان بنصر الله لنا، والثقة بتأييده إياناً، واليقين بسنته تعالى في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولو كره المجرمون، والاطمئنان إلى وعده الذي وعد به المؤمنين العالمين: ﴿**ليستخلفنّهم في الأرضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلهم وليمكنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليبدِّلَنّهم من بعد خوفهم أمناً**﴾[النور: ٥٥]، ﴿**وعدَ اللهِ لا يخلفُ اللهُ وعدَه**﴾[الروم: ٦]، ﴿**وكانَ حقاً علينا نصرُ المؤمنينَ**﴾[الروم: ٤٧]، ﴿**إن اللهَ يدافعُ عنِ الذينَ آمنوا**﴾[الحج: ٣٨].

ولئن كان وعد بريطانيا لليهود على لسان (بلفور) وزير خارجيتها، بإنشاءِ وطن قومي لهم في فلسطين، قد جعلهم يجمعون العزم، ويحثون الخطا، ويضاعفون الجهد، لتحقيق أمانيهم القديمة ـ على الرغم من نحو مئة مليون من المسلمين، مع أن يهود العالم كله لا يزيدون على بضعة عشر مليوناً ـ ألا يكون وعد الله لنا بالمعية والنصر والدفاع والتأييد والتمكين والاستخلاف في الأرض، جديراً بأن يشحذ منا الهمم، ويستثير العزائم، ويفعم صدورنا ثقة بالمستقبل، وإيماناً بأن الدور لنا لا علينا، وأن التاريخ معنا، لا مع عدونا، وإننا لنحن المنصورون، وإن حزب الله لهم الغالبون.

إن الإيمان بالنصر من أعظم عناصر القوة، وما من شك في قيمة هذا العنصر المعنوي، فقد بخس النفس الإنسانية قدرها، وغمطها حقها، فقد أجمع رجال المعارك، قديماً وحديثاً على أن للروح المعنوية أثرها الملموس، في تحقيق

الظفر، والانتصار على العدو، وإن كان أقوى عتاداً، وأكثر نفراً.

ونحن بحكم إيماننا نجزم بأن الله تعالى قدير على أن ينصر حزبه، وجند دينه، ودعاة كتابه، وأنصار رسوله، بما شاء من وسائل نعلم منها ما نعلم، ونجهل منها ما نجهل: ﴿**وما كان الله ليُعجزَه من شيءٍ في السموات ولا في الأرضِ**﴾[فاطر: ٤٤].

إن كتاب الله يقص علينا من أنباء الرسل مع أقوامهم، ما يملأنا ثقة، بأن الحق لابد أن ينتصر، وأن الباطل لابد أن ينكسر، وأن صاحب الحق لا يظل ضعيفاً أبداً، وأن الطاغية لا يستمر قوياً أبداً، فالدنيا دول، والحرب سجال، والعاقبة للمتقين.

ألم تقرأ في قصة موسى: ﴿**إن فرعونَ علا في الأرضِ وجعلَ أهلَها شيَعاً يستضْعفُ طائفةً منهم يذبِّحُ أبناءَهم ويستحيي نساءهم إنه كانَ من المفسدين ۞ ونريدُ أن أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهمْ أئمةً ونجعلهمُ الوارثين ۞ ونمكِّنَ لهم في الأرضِ ونريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرُون**﴾[القصص: ٤-٦].

وتنفيذاً لهذه الإرادة الإلهية في تحرير هؤلاء المغلوبين، بعث الله منقذ المستضعفين، وتحطم ملك فرعون، الذي قال للناس: أنا ربكم الأعلى.

وشاء الله أن يربيْ هذا المنقذ وليداً في بيت الطاغية نفسه، الذي التقطه ليكون له عدواً وحزناً، وكان من الأمر ما كان، وبطلت احتياطات فرعون، ونفذت إرادة الله ﴿**وتمَّتْ كلمةُ ربِّك الحُسنى على بني إسرائيلَ بماصبرُوا ودمَّرنا ما كانَ يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يعرِشُون**﴾[الأعراف: ١٣٧].

لقد انتصرت القلة على الكثرة، وانتصر الضعفاء على الأقوياء، وانتصر موسى على فرعون، ذلك لأن موسى لم يكن وحده في المعركة، بل كان مع الله فكان الله معه، ولهذا حين اتبعه فرعون بجنوده بغياً وعدواً، ونظر موسى والذين آمنوا معه، فإذا البحر أمامهم، والعدو من خلفهم.

كان موقف موسى كما حدث القرآن عنه: ﴿**فلما تراءَى الجمعانِ قالَ أصحابُ موسى إنّا لمدرَكون ۞ قالَ كلاَّ إنَّ معيَ ربِّي سيهدينِ**﴾[الشعراء: ٦١-٦٢].

﴿**إنَّ معي ربِّي سيَهدينِ**﴾[الشعراء: ٦٢] كلمة مؤمنة، قالها موسى بن عمران، تشبه الكلمة التي قالها أخوه محمد بن عبدالله ﷺ وهو في الغار، والمشركون على بابه، وصديقه ورفيقه أبو بكر يقول في إشفاق: (والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا)، فيقول الرسول في ثقة واطمئنان: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا»(١).

وتجلت معية الله لموسى، فأنجاه من عدو الله وعدوه بما لم يخطر على باله، ولا على بال عدوه: ﴿**فأَوحينا إلى موسى أنِ اضربْ بعصاكَ البحرَ فانفلقَ فكانَ كلُّ فِرْق كالطَّودِ العظيمِ ۞ وأزلفنا ثَمَّ الآخرِينَ ۞ وأنجينا موسى ومَن معه أجمعينَ ۞ ثم أغرقْنا الآخَرِينَ**﴾[الشعراء: ٦٣-٦٦].

كما تجلت معية الله لمحمد في الغار، فرد عنه كيد المشركين بجند من أضعف جنده، بيض الحمام ونسج العنكبوت: ﴿**وإنَّ أوهنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمونَ**﴾[العنكبوت: ٤١].

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي بكر الصديق في كتاب فضائل الصحابة (٣٦٥٣) وفي مناقب الأنصار (٣٩٢٢)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٠٠٩/٧٥).

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**إلاَّ تنصرُوه فقدْ نصرَهُ الله إذ أخرَجَه الذينَ كفروا ثانيَ اثنينِ إذ هما في الغارِ إذ يقولُ لصاحبِه لا تحزن إن الله معنا فأنزلَ اللهُ سكينتَه عليه وأيَّدَه بجنودٍ لم ترَوها وجعلَ كلمةَ الذينَ كفرُوا السفلى وكلمةُ اللهِ هيَ العليا والله عزيزٌ حكيمٌ**﴾[التوبة: ٤٠].

إن المؤمن لايعرف اليأس أبداً، ولا يفقد الرجاء أبداً، وإن أدلهمت من حوله الخطوب، وتألبت عليه قوى الشر.

إنه واثق بربه، واثق بحقه، واثق بنفسه، واثق بغده، واثق بوعد الله له.

ومثله الأعلى في ذلك هو رسول الله ﷺ فقد كان في أحلك الأزمات، مؤمناً بالنصر، كأنه أمامه رأى عينه.

روى البخاري عن خباب بن الأرت، قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت، ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه»(١).

فإذا كان رسول الله ﷺ لم ينقطع خيط الأمل من قلبه، ولم يتسرب إليه مثقال ذرة من يأس في مستقبل دعوته، وانتصار رسالته، وانهزام أعدائه، وهو ضعيف مستضعف، يعذب أصحابه ويطاردون، أو كما وصفهم الله:

---

(١) البخاري في كتاب مناقب الأنصار (٣٨٥٢)، وأحمد في مسنده ١٠٩/٥.

﴿قليلٌ مستضعفونَ في الأرضِ تخافونَ أنْ يتخطَّفَكُمُ الناسُ﴾[الأنفال: ٢٦].

فكيف نضعف عنه أو نتخاذل أو نستسلم لليأس، ونحن نملك من أسباب القوة ما لا يمكله أعداؤنا، ولا يمكنهم أن يملكوه يوماً؟!

نملك قوة الشعوب المؤمنة بدينها، والتي لا ترضى به بديلاً، يستورد لها من الشرق أو الغرب.

ونملك قوة المنهج الذي ندعو إليه، منهج الإسلام الذي وضعه رب البشر للبشر، والذي برئ من كل غلو وتقصير عرف في مناهج البشر، وأنظمتهم الوضعية المقطوعة عن هدي السماء. هذا المنهج الذي تؤكد الأيام شدة حاجتنا إليه خاصة، وحاجة البشرية إليه عامة.

ونملك قوة الكفاح والصمود في الأمة الإسلامية، التي تبرز في الأزمات والمصائب أشد ما تكون، وأصلب ما تكون.

ونملك الإيمان بنصر الله تعالى، وتأييده ووعده الذي لايتخلف أبداً.

أفليست هذه القوى التي نملكها يا صاحبي، أكبر وأخطر وأعظم من المعوقات التي تذكرها؟

وهل من الإنصاف أن يذكر الإنسان الأمور المعوقة، وينسى الأمور المعينة والميسرة؟

إن العدل يقتضيك إذا ذكرت جوانب الضعف ألا تنسى مصادر القوة، وإذا ذكرت عوامل اليأس ألا تغفل بواعث الأمل، وإذا ذكرت القوى المعارضة أن تذكر معها القوى المؤيدة.

فهل لديك اعتراض على هذا الذي قلته يا صاحبي؟

قال صاحبي: لا اعتراض ولا جدال، ولكن في النفس شيء صرحت ببعضه من قبل، ذلك هو المحن الشداد التي تصب على رؤوس الدعاة إلى

الإسلام، والضربات القاسية التي تنهال عليهم من هنا وهناك، فمن ذا الذي يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدين المشردين المعذبين قائمة، أو يرتفع لهم علم، أو ينتصر في الناس نظام يدعون إليه، ورسالة يؤمنون بها، وهم في كل يوم بين المطرقة والسندان؟

قلت لصاحبي: إن هذه المحن التي نذكرها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الإسلام، بل هي دليل حياة وحركة وقوة، فإن الميت الهامد لا يضرب، ولا يؤذى، إنما يضرب ويؤذى الحي المتحرك المقاوم.

إن الدعوة التي لا يضطهد أصحابها، ولا يؤذى دعاتها، دعوة تافهة أو ميتة، أو دعاتها ـ على الأقل ـ تافهون ميتون.

ثم إن هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه، مبدأ الإسلام، فهو يقدم كل حين شهداء في معاركه، يروون شجرته بدمائهم، ويبنون صرح مجده بأشلائهم.

وهذه المحن أبلغ معلم، وأعظم مرب، لأصحاب الدعوات، باعتبارهم أفراداً، تصفو أنفسهم بالشدة، وتتمحص قلوبهم بالمحنة، وقد جاء في الحديث: «مثل المؤمن يصيبه البلاء، كمثل الحديدة تدخل النار، فيذهب خبثها، ويبقى طيبها»(١).

---

(١) الحديث رواه البزار في كشف الأستار من حديث عبد الحميد بن عبدالرحمن بن أزهر عن أبيه بلفظ «مثل المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمّى كمثل حديدة تُدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيّبها» ١/٣٦٢ (٧٥٦)، وقال الهيثمي في المجمع ٢/٣٠٢: رواه البزار والطبراني في الكبير وفيه من لا يعرف. ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي ١/٧٣، ٣٤٨، وتعقبه الألباني فقال: وسائر الرجال ثقات من رجال الشيخين، فالإسناد حسن، والحديث صحيح بما له من شواهد معروفة، الصحيحة ٤/٢٩٠، ٢٩١ (١٧١٤).

وهي لجماعتهم محك للتمييز، ومصفاة للتنقية، وامتحان للإيمان، ليميز الله الخبيث من الطيب، ففي أيام الرخاء والعافية يكثر الأدعياء، ويتزاحم على الدعوات المرجوة طلاب المنافع، ومرضى القلوب، فتأتي هذه المحن لتنفي خبثهم من صفوف المؤمنين، كما نفت الخبث من صدور الأفراد، فهنا يتبين الصادق من الكاذب، ويتميز المخلص من المنافق ﴿**ومن الناسِ من يعبدُ اللهَ على حرْفٍ فإنْ أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به وإن أصابتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهِه خسرَ الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسرانُ المبينُ**﴾[الحج: ١١]، ﴿**ومنَ الناسِ مَن يقولُ آمنَّا باللهِ فإذا أوذيَ في اللهِ جعلَ فتنةَ الناسِ كعذابِ اللهِ ولئنَ جاءَ نصرٌ مِن ربِّك ليقولُنَّ إنا كنَّا معَكم أو ليسَ اللهُ بأعلَمَ بما في صدورِ العالمينَ**﴾[العنكبوت: ١٠].

هذا الصنف الذي يعبد الله على حرف، والذي يجعل فتنة الناس كعذاب الله ـ أي يخاف من الأذى يصيبه من الناس كما يخاف من نار جهنم ـ صنف لا خير فيه، ولا فائدة من بقائه إلا خلخلة الصف، وتثبيط الآخرين، وتعويق العاملين، كما قال تعالى في مثلهم: ﴿**لو خَرَجُوا فيكُم ما زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم يَبْغونَكُم الفتنةَ وفيكُم سَمَّاعونَ لهم والله عليمٌ بالظالمينَ**﴾[التوبة: ٤٧].

وإن مع منافع المحن حين تندلع نارها، أنها تحرق هذا الصنف، وتجعله رماداً، على حين تنضج الصنف الآخر وتصقله، وتجلو عنه كل غبش أو دخل داخله أيام الرخاء والسراء.

ومن منافع المحنة أنها تقوي رابطة المؤمنين من حملة الدعوة إلى الله، بأن المحنة تضم إليهم عنصراً جديداً يجمعهم، ويوثق عرى الاتصال بينهم، فإذا

كانت العقيدة هي الرابطة الجوهرية الأصلية، التي تحت لوائها يتجمعون ويتراصون كالبنيان، فإن المحنة عامل مساعد يزيد هذا الترابط قوة وعمقاً، فإن الإحساس بالخطر الواحد، مواجهة العدو الواحد، واصطلاء البلاء الواحد، من شأنه أن يزيل كل فجوة بين الصفوف، وأن يشعر الجميع بكمال الوحدة، وتمام التضامن.

ومن هنا قال السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله: (بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة)، وقال شوقي:

إن المصائب يجمعن المصابينا

ولقد امتحن الله المسلمين بالهزيمة في غزوة أحد، فقتل منهم سبعون من خيارهم، من أمثال: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وغيرهم من أبطال الإسلام.

وكانت هذه المحنة شديدة الوقع على أنفس المسلمين، فأنزل الله نحو ثمانين آية من سورة آل عمران، تثبيتاً وتعزية للمؤمنين، وهدى وموعظة للمتقين.

ولقد ذكر ابن القيم من حكم هذه المحنة وأسرارها شيئاً كثيراً نذكر منه ما يلي: (إن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم، جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن يكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً؛ لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله، أن جمع لهم بين الأمرين، ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به، مما يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة)[1] .

---

(١) «زاد المعاد» ٢/٢٤٩٩.ط. السنة المحمدية بمصر.

قال الله تعالى: ﴿**ما كانَ اللهُ ليذَرَ المؤمنينَ على ما أنتمْ عليهِ حتى يَميْزَ الخبيثَ من الطيِّبِ وما كانَ اللهُ ليُطْلِعَكُمْ على الغيبِ ولكنَّ اللهَ يجتبي من رسلِه مَن يشاءُ...**﴾[آل عمران: ١٧٩]، أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين؛ حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم (أحد)، ﴿**وما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكم على الغيبِ**﴾[آل عمران: ١٧٩] الذي يميز بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في علمه وغيبه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم، وفي حال ظفر أعدائهم بهم؛ فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله، والدار الآخرة، فإذا أراد ربها ومالكها وراحمها كرامته؛ قيض لها من الإبتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة

لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه المقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا اراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم؛ قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها - بعد كفرهم - بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿**ولا تهنوا ولا تَحْزَنوا وأنتمُ الأعلَونَ إنْ كنتم مؤمنينَ إنْ يمسسْكُم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلُه وتلكَ الأيامِ نداولُها بينَ الناسِ وليَعلمَ اللهُ الذينَ آمنوا ويتخذَ منكُم شهداءَ واللهُ لايحبُّ الظالمينَ ۞ وليُمَحِّصَ اللهُ الذينَ آمنوا ويَمْحَقَ الكافرينَ**﴾[آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠].

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم، وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم، فقال: ﴿**إنْ يَمسسْكُم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرْحٌ مثلُه**﴾[آل عمران:١٤٠] فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿**إنْ تكونُوا تَألمونَ فإنهم يَألمونَ كما تَألمونَ وتَرْجُونَ مِن**

﴿اللهِ ما لايرجونَ﴾[النساء: ١٠٤] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي، وابتغاء مرضاتي.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهي: تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس.

وأيضاً، فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي: محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم، أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه فقال: ﴿أمْ حسبتُم أنْ تدخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يعلمِ اللهُ الذينَ جاهدوا مِنْكُم ويعلمَ الصابرينَ﴾[آل عمران: ١٤٢] أي ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم، فإن الله لايجزي العبد على مجرد علمه فيه، دون أن يقع معلومه.

هذه الأمة لن تموت

الأمة:

(الأمة): كلمة معرفة بـ (أل) العهدية، كما يقول علماء العربية، فهي تشير إلى معهود في الذهن، مرسوم في الفكر، محفور في القلب.

وهو الأمة، التي لا يعرف المسلم غيرها، فإليها ينتمي، وبها يعتز، وفي سبيل بقائها وكرامتها يجاهد، وأعني بها: (أمة الإسلام).

إنها الأمة الواحدة، التي تؤمن برب واحد: هو الله تعالى، وتؤمن بكتاب واحد: هو القرآن الكريم، وتؤمن برسول واحد: هو محمد عليه الصلاة والسلام، وتتجه كل يوم خمس مرات إلى قبلة واحدة: هي الكعبة، بيت الله الحرام.

إنها تتكون من شعوب وقبائل في أقطار وأقاليم، ولكنها مع هذا تظل أمة واحدة، جمعتها العقيدة، وربطت بينها الشريعة، ووحدت بين أذواقها ومشاربها القيم والآداب الإسلامية، وعاشت تاريخاً مشتركاً في انتصاراته ومآسيه، وعانت حاضراً مشتركاً في آلامه وآماله.

ولهذا لايجوز لنا أن نقول: (أمم إسلامية)، بل (شعوب إسلامية) لأمة واحدة، خاطبها الله تعالى بقوله: ﴿**وإنَّ هذه أمَّتُكم أمةً واحدَةً وأنا ربُّكم فاتقون**﴾[المؤمنون: ٥٢].

إنها أمة واحدة في الغاية والوجهة...

واحدة في الأفكار والمفاهيم...

واحدة في المشاعر والأحاسيس...

صَوَر الرسول ﷺ وحدتها في ذلك فمثّلها بالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمي.

وهي أمة متميزة بمقوماتها وخصائصها، ومن هذه الخصائص: أنها أمة (ربانية).

لم تنشأ بمجرد المصادفة، إنها وجدت في إقليم واحد، أو انتسبت إلى عنصر معين، كبعض الأمم **ولم تنشأ كذلك بإرادة فرد، أو إرادة حزب، أو إرادة طبقة، أو إرادة مجلس ثوري أو منتخب**، إنما أنشأها الله لتؤدي رسالتها في الوجود كما قال سبحانه: ﴿**وكذلكَ جَعَلْنَاكم أمةً وسَطًا**﴾[البقرة: ١٤٣].

فالله هو الذي جعلها كذلك وأعدها لذلك، لتقوم بدورها في الناس.

خصائص متفردة:

ومن خصائصها: ما أشارت إليه الآية الكريمة وهو (الوسطية) فهي أمة وسط في كل شيء، في التصور والاعتقاد، وفي التعبد والتنسك، وفي القيم والأخلاق، وفي العمل والسلوك، وفي التشريع والتنظيم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي العلاقات كلها داخلة وخارجة، لا تهمل المادة لحساب الروح، ولا الروح لحساب المادة، ولا يضخم الفرد فيطغى على المجتمع ولا المجتمع فيطغى على الفرد، وإنما يعطي لكل جانب حقه، ويطالبه بواجبه في غير طغيان ولا إخسار، كما قال تعالى: ﴿**ألاَّ تَطْغَوا في الميزانِ ۞ وأقيموا الوزنَ بالقسطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ**﴾[الرحمن: ٨-٩].

وهي أمة **ذات رسالة عالمية**، ليست أمة إقليمية ولا قومية، بل وضعها

الله في مقام الأستاذية للبشرية كلها، والهداية للناس كافة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿.. **وكذلكَ جعلنَاكم أمةً وسَطَاً لتكونُوا شهداءَ على الناسِ**﴾[البقرة: ١٤٣]، وقوله جل شأنه: ﴿**كنتم خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجت للناسِ تَأمُرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكرِ وتُؤمنونَ بالله**﴾[آل عمران: ١١٠].

فهذه الأمة لم تنبت وحدها كالنبات البري أو الشيطاني، كما يسميه بعض الناس، إنما أنبتها منبت، **وأخرجها مخرج، وهو الله جل جلاله**، ولم يخرجها لتتقوقع على نفسها، وتعيش في حدودها، ولمنافعها المادية الخاصة، إنما أخرجها (**للناس**) **كل الناس**، بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، أغنياء وفقراء، فهي أمة (مبعوثة) للعالمين، كما أن كتابها أنزل ذكراً للعالمين، ونبيها أرسل رحمة للعالمين، وبعثة هذه الأمة بعثة رحمة ويسر، لا بعثة قسوة وعسر ..

وقد خاطب الرسول ﷺ الأمة فقال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»(١).

ولقد فقه الصحابة هذا المعنى، وأدركوا أنهم مبعوثون لهداية أمم الأرض، وعبر عن ذلك أحدهم، وهو: ربعي بن عامر ـ في مواجهة رستم قائد الفرس، محدداً مهمة الأمة في عبارات بليغة موجزة: (إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

---

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة ٢/٢٨٢، والبخاري في الوضوء (٢٢٠) وفي الأدب (٦١٢٨).

أمة خالدة:

ومن خصائص هذه الأمة: أنها أمة خالدة، بخلود رسالتها وكتابها، فهي باقية ما بقي الليل والنهار، دائمة ما دام في الدنيا قرآن يتلى، وإذا كان القرآن محفوظاً بحفظ الله، فأمة القرآن باقية ببقاء القرآن.

وقد تكفل الله تعالى لرسوله الكريم ألا يهلك أمته بما أهلك به أمماً من قبلها، بالعقوبات القدرية، والنوازل الكونية، كالطوفان والخسف والمسخ والريح الصرصر، وغير ذلك.

وتكفل له كذلك ألا يسلط عليها عدواً من غيرها، يستأصل شأفتها، ويقتلعها من جذورها، إلا أن يهلك بعضها بعضاً، ويذوق بعضهم بأس بعض[1].

وكما تكفل الله لرسوله أن **يحفظ أمته** من الهلاك الحسي بعذاب الاستئصال، تكفل له بحفظها من الهلاك المعنوي بالاجتماع على الضلال، ففي الحديث: «إن الله لم يكن ليجمع أمتي على ضلالة»[2].

وسر ذلك أنها آخر الأمم، كما أن نبيها آخر الأنبياء، وكتابها آخر الكتب، فليس بعد محمد رسول، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد الإسلام شريعة، ولا بعد أمة الإسلام أمة.

---

(١) رواه مسلم من حديث ثوبان في كتاب الفتن وأشراط الساعة (١٩/٢٨٨٩).

(٢) رواه الترمذي من حديث ابن عمر في كتاب الفتن بلفظ: «إن الله لايجمع أمتي. أو قال: أمة محمد ﷺ. على ضلالة» (٢١٦٧) وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

فإذا اجتمعت أمة من الأمم، قبل الإسلام على الضلال لم يكن في ذلك خطر على البشرية؛ لأنها أمة محدودة المكان موقوتة الزمان، بخلاف الأمة الإسلامية، فلها من عالميتها وخلودها ما يجعلها ممتدة في المكان حتى تعم الشرق والغرب، وممتدة في الزمان حتى قيام الساعة، فلو ضلت كلها لضلت بها البشرية جمعاء، دون أمل في تغيير، إذ ليس معها ولا بعدها من يحمل للناس هداية الله.

ومن ثم كان من عمل العناية الإلهية، أن تظل في هذه الأمة **فئة تحيا على الحق وتموت عليه**، وهي بمثابة **سفينة الإنقاذ**، أو جيش الخلاص، وهي التي تحفظ التوازن، وتمسك البناء أن ينهار وفيها جاء قول الله تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾[الأعراف: ١٨١].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لايضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»(١).

هذه الطائفة هي منار السائرين، ودليل الحائرين، وقوة المستضعفين، وهم الذين يقومون لله بالحجة، ويدعون إلى الله على بصيرة، ويبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله.

وهم (**الغرباء**) الذين يَصلُحون إذا فسد الناس، ويُصلحون ما أفسد الناس، وهم (**الفرقة الناجية**) بين الهالكين، المهتدين بين السالكين، الذين يحيون ما كان عليه الرسول وأصحابه، ومن رحمة الله بالناس أن تبقى فيهم

(١) رواه البخاري من حديث المغيرة بن شعبة في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١١).

مثل هذه الفئة المختارة الموكلة من الله تعالى، تعلم من يجهل، وتهدي من يضل، وتذكر من ينسى، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿**فإنْ يكفر بها هؤلاءِ فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بِكافرينَ**﴾[الأنعام: ٨٩].

ورحم الله أحمد شوقي حين قال:

إن الذي خلق الحقيقة علقماً لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلا

ومن دلائل الخلود لهذه الأمة، أن الكوارث والنكبات لا تحطمها ولا تقتلها، بل تبعث فيها **روح المقاومة** والتحدي، فتراها إذا نزلت بها النوازل القاصمة، أشد ما تكون قوة، وأصلب ما تكون عوداً، حتى إن الناس ليظنون بها الظنون، ويحسبونها في عداد الهلكى، فإذا هي في فترة وجيزة، تتغلب على عوامل الضعف المحيطة بها، بروح القوة المكنونة في داخلها، وإذا بالذين يرقبونها من بعيد، أو ينظرون إليها من قريب، يرون انتصاراً بعد انكسار، واجتماعاً بعد شتات، وحياة وحركة بعد جمود أشبه بالموات.

١ ـ رأينا ذلك في **فجر الإسلام**، في حروب الردة وقتال المتمردين على دفع الزكاة.

٢ ـ ورأيناه في عصور التمزق للدولة الإسلامية، في مقاومة غزوات التتار الوحشية، الذين أقبلوا من الشرق كأنهم يأجوج ومأجوج، أو كأنهم الريح العقيم ﴿**ما تذرُ من شيءٍ أتتْ عليهِ إلاّ جعَلَتْه كالرَّميمِ**﴾[الذاريات: ٤٢].

٣ ـ وفي مقاومة الحروب الصليبية التي زحفت فيها أوروبا على الشرق الإسلامي بقضها وقضيضها وثالوثها وصليبها، فقتلت وحرقت وأفسدت

ودمرت، ما يعلمه كل دارس لتلك المرحلة من التاريخ.

ولكن القوة الذاتية الكامنة في أمة الإسلام، لم تلبث أن ظهرت في وقائع تاريخية حاسمة، فحطمت أحلام الصليبيين في حطين.. وفتح (بيت المقدس) بعد أن بات أكثر من تسعين عاماً أسيراً في يد الغزاة، وأسر (لويس التاسع) ملك فرنسا في (دار ابن لقمان) بالمنصورة، وارتد التتار مدحورين في (عين جالوت) بعد أن كان الناس يعتبرونهم (القوة التي لاتقهر) حتى شاع بين الناس القول: إذا قيل: إن التتار انهزموا فلا تصدق ..!

وفي العصر الحديث، رأينا الجهاد البطولي، ضد الغزاة المستعمرين، في سائر ديار الإسلام، جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الفرنسيين، والأمير عبد الكريم الخطابي ضد الاسبان، والبطل عمر المختار ضد الطليان، والشيخ عز الدين القسام ضد الإنجليز واليهود، مروراً بثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة، والقناة ضد الإنجليز.

العملاق ينتفض:

واليوم نرى العملاق الإسلامي ينتفض بعد طول ركود ورقود، فإذا هو جهاد مستبسل في أفغانستان، وقتال في أرتيريا والفلبين، وعمل فدائي في فلسطين، ويقظة في مصر وسورية وتركيا، وشباب مثقف يتجه بقوة ووعي إلى الإسلام في الشرق والغرب ، متحدياً رواسب القديم، وفتنة الجديد، معتصماً بإيمان الأقوياء، وقوة المؤمنين.

وهذه الدلائل كلها من هنا وهناك وهنالك، تعبر بوضوح عن خلود هذه

الأمة، وقوتها وأصالتها، بالرغم مما قد يبدو على سحنتها من مظاهر الوهن والهزال.

إن الأجانب من المسشرقين والدارسين لطبيعة أمتنا، وخصائص ديننا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية، يحسبون لها ألف حساب، بل يساورهم وَهْم مفزع من خشية انطلاقها يوماً من الأيام. يقول البروفيسور (جب) في كتابه: (وجهة الإسلام): (إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة؛ فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها. إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد).

وكتب الرحالة الألماني (بول أشميد) كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه (الإسلام قوة الغد) ظهر سنة ١٩٣٦م. ومما قال فيه: إن مقومات القوى في الشرق الإسلامي تنحصر في عوامل ثلاثة:

١ ـ في قوة الإسلام (كدين) وفي الاعتقاد به، وفي مُثله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢ ـ وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الذي يمتد من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غرباً إلى المحيط الهادي، على حدود أندونيسيا شرقاً.

وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتي، لا

يدع المسلمين في حاجة مطلقاً إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣ ـ وأخيراً أشار إلى العالم الثالث وهو: خصوبة النسل البشري لدى المسلمين مما جعل قوتها العددية قوة متزايدة[١] .

ثم قال: (فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم، كان الخطر الإسلامي خطراً منذراً بفناء أوروبا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله).

ويقترح (بول أشميد) هذا، بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية، كما تبلورت في تاريخ المسلمين، وتاريخ ترابطهم وزحفهم، لرد الاعتداء عليهم، أن يتضامن الغرب المسيحي شعوباً وحكومات، ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في أسلوب نافذ حاسم[٢] .

وقال (روبرت بين) في مقدمة كتابه الذي سماه: (السيف المقدس): (علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم؛ لأنهم حكموا العالم سابقاً، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة التي أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ، ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف القراء على أصل العرب، وسميته باسم السيف ذي النصلين، الذي ناله محمد في وقعة

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل في العالم الإسلامي!

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهي في إحدى محاضراته، وقد ترجم الكتاب كله فيما بعد الدكتور محمد عبد الغني شامة، تحت عنوان: الإسلام قوة الغد العالمية. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

بدر، تذكاراً لانتصاره؛ لأن السيف أصبح رمزاً لمطالبه الإمبريالية)[1] .

وبغض النظر عما في هذا الكلام من تحامل، وما يغلي به من حقد، فهو يبين لنا مبلغ قوة المسلمين في نظر الأجانب عنهم، وتؤكد تلك الحقيقة الكبيرة: إن هذه الأمة قد تضعف، ولكنها لا تموت، فقد ناط الله بها رسالة الخلود.

(١) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسيني عن هذا الكتاب.

obeikandl.com